

المنقذ وثقافة الحوار

محمد صلاح الموهوب، المتدين، النموذج، القدوة، سيات ارتبطت به وأثارت الكثير من النقاشات والحوارات التي وصلت كالعادة إلى نوع من الجدل العقيم حول درجة تدينه والتزامه، ومقتضيات شكله كنموذج للشباب المسلم الذي يمثل بلده ودينه في الخارج، بل امتدت إلى حياته الأسرية وأصوله الاجتماعية وعلاقته بأهله وقريته، جدل لم يخرج عن الكثير من أشكال اللامعقول التي تحيط بحياتنا هذه الأيام.

صحيح أن ميراث الحوار حول أي من القضايا، يعكس ضعف هذه الثقافة وعدم رشدنا بالقدر الذي يساعد على استخلاص الدروس والخبرات، ويقدم استرشادات ومعالم واضحة للتقدم في أي قضية، إلا أن محمد صلاح أو حالة الجدل والنقاش حوله تبدو مرآة عاكسة للكثير من ملامح الواقع الذي نشهده ونعيشه هذه الأيام بدءاً من إدخال الدين وتوظيفه سياسياً ومروراً بالتطرف والتعصب الكروي وانتهاءً بالتمييز والنظرة الفوقية التي تتخلل العديد من شرائح المجتمع، تمثل جميعها آفات وسماز ضعف وخلل مجتمعي معبرة عن تزايد التوترات الاجتماعية.

وصحيح أيضاً، أن محمد صلاح يمثل قدوة ونموذجاً جيداً للشباب المصري، وحالة نجاح كبيرة تستند إلى قدر كبير من القيم الإيجابية الداعمة لأهمية الاجتهاد والعطاء والتخطيط، إلى جانب الالتزام الواضح بين البعد السلوكي والأخلاقي وبين العمل وثقافته.

إن محمد صلاح نموذج للنجاح توافر له السياق والبيئة والمناخ الداعم لصقل موهبته، وأخذ بالأسباب التي تحافظ على هذه الموهبة وتطورها، فكان تفكيره العلمي والاحترافي داعماً لقدرته على التعايش والتأقلم مع بيئة غريبة مخالفة في أنماط السلوك والقيم والأفكار، بدون أن يفقد هويته وشخصيته المصرية الإسلامية، ويحتفظ بانتباهه لبلده وقريته، فلم تجرفه "بلاد الجن" كما وصفها محمد عبده إلى سحرها وبريقها، ولكنه أبطل سحرها وأخذ منها ما يلائمه ويحافظ على خصوصيته وتميزه بدون مكابرة أو استغلال.

حالة محمد صلاح تتوافق مع الكثير من الحالات المصرية الناجحة التي خرجت من مصر وتواصلت مع العالم الخارجي، ونجحت وحافظت على علاقتها وانتائها لبلدها مصر، نعرف بعضهم ولكن الكثير لم نعرفهم، لأنهم غير مشاهير والإعلام لا يهتم بهم أو لأنهم لم يسعوا إليه، ولم تختصهم مؤسسات الدولة، وإن كان هناك بعض المبادرات والأفكار الإيجابية الحالية الداعمة للتواصل مع الجاليات المصرية في الخارج وشبابها، ولكن تظل خصوصية محمد صلاح مرتبطة بشخصيته البسيطة المتواضعة المحبة لبلدها وقرينتها، فضلاً عن أخلاقه الجمّة، هذا إلى جانب تفوقه وموهبته الكروية، تلك الساحرة المستديرة التي يعشقها المصريون، وتمثل حالة الاستمتاع المقاومة للضغوط الحياتية.

القضية إذاً ليست الحالة المصاحبة لمحمد صلاح (والتي تنطبق على حالات عديدة قبله) ولكن قضية ثقافة ونضج مجتمعي، ومنظومة من القيم، فرضت تداعياتها على عملية بناء الإنسان المصري، لاسيما خلال الأربعين عاماً الماضية، فأحدثت الكثير من التشوهات والتوترات المجتمعية، وإن مثلت الفترة الماضية وتحديدًا منذ عام ٢٠١١ مرحلة انكشاف كبيرة للكثير من المسكوت عنه مجتمعيًا، وانكشاف لمدى تجذر العديد من الأمراض والاختلالات المجتمعية، مثل: التطرف والهوية والانتماء جنبًا إلى جنب مع ضعف القيم الحاكمة للطبقة الوسطى التي تحللت شرائحها بشكل كبير، وتنامى ثقافة الفقر والعشوائيات، فضلاً عن موجة الإرهاب والخوف على كيان الدولة الوطنية.

فمرحلة الانكشاف هذه وما خلفته من تأثيرات عكستها المرحلة الانتقالية، انعكست بوضوح على الكثير من الأجيال، وإذا ما أضفنا تأثيرات العولمة واضطرابات المنطقة العربية في ظل ضعف المؤسسات الثقافية الرسمية وغير الرسمية وتراجع المكون الثقافي والتنويري وضعف القوى المدنية أمام قوى "تيار الإسلام السياسي" فإنها جميعها تحديات وسات لعبت دورًا في تعميق حالة الاستقطاب المجتمعي والتحفز السلبي الناتج عن ضعف قواسم التوافق المجتمعي، الأمر الذي يزيد من الشعور بالاغتراب لاسيما وسط أجيال الشباب.

لتبدو حالة المنقذ التي برزت مع إصابة محمد صلاح في مباراته مع الريال، وما صاحبها من ردود فعل وحزن مجتمعي تجاوز في حقيقته حدث الإصابة إلى الخوف على المنقذ، فصالح هو المنتخب (بالطبع هو الأكثر تأثيرًا وفاعلية) رغم أنها لعبة جماعية، وبالتالي انتقلت فوبيا الخوف على صلاح والمنتخب وحلم الإنجاز في المونديال إلى انكسار وغضب باتجاه اللاعب راموس، والحديث عن مؤامرة متعددة الرؤوس والمحاور تقودها الصهيونية.

إن الخوف على صلاح (وربنا يحميه) حق مشروع، وكثير من الفرق الرياضية تعتمد على اللاعب الأكثر موهبة، والفريق المصري لا يمثل استثناءً كبيرًا في هذا الأمر، ولكن ما يلفت النظر في هذه الواقعة، ارتباطها بما يمكن تسميته حالة "محمد صلاح"، وهو ما تجب دراسته بشكل معمق، فالتحليل الأولي لما شهدته وسائل التواصل الاجتماعي منذ لحظة إصابته تشير بوضوح إلى حالة اللامعقول وربما غلبة العاطفة، فلم ينتظر الكثيرون التشخيص الطبي، وذهبوا إلى الاجتهاد والجدل حول التشخيص ومدّة العلاج. وإن كانت التعليقات على وسائل التواصل الاجتماعي، تعدّ مؤشرًا كاشفًا على العديد من المشاكل والقضايا الاجتماعية الحالية، فإنها أيضًا تكشف عن رسوخ وتجذر العديد من السمات الشعبية، ومنها حالة المنقذ الذي نبحث عنه في كل مجال، والتي ترتبط بالمخزون المجتمعي والثقافة التقليدية الاتكالية، فهناك فرق بين النموذج والقدوة وبين المنقذ، وهو فرق ما بين الاجتهاد والعمل وتحديد مسارات التقدم، وبين الاعتراف على مهارات وقدرات شخص.

إن الوصول إلى المونديال، كان وراءه جهد وتخطيط وعمل لاشك في ذلك، وكان أملاً يراود الكثير من المصريين مع كل دورة لكأس العالم، ولكن مع تحقق حلم المشاركة بدت الأهداف غير واضحة والتخطيط غير مكتمل، وبدا الشك والخوف يرتبطان بالمنقذ محمد صلاح وتحميله مسئوليات أكبر في النتائج بقدر أكبر من البحث في تعظيم أوجه الاستفادة من الوصول للمونديال ليس على مستوى الرياضة وكرة القدم فقط، ولكن على مستوى الدولة المصرية.

وهنا يبرز التساؤل الذي سعت مجلة "أحوال مصرية" إلى الإجابة عليه من خلال تناول حلم المشاركة في المونديال، وهو التساؤل الذي نتج عن النقاش مع الزميل د. زياد عقل، الخبير بالمركز، وامتد إلى أهمية معالجة موضوع المونديال من منظور الاهتمام بالسياسات العامة، وابعثاره مناسبة يتمحور حولها الجماهير، وبالتالي كيف يمكن أن تتطور السياسات القائمة وأن نعظم أوجه الاستفادة من المشاركة بما يخالف المشاركتين السابقتين (١٩٣٤، ١٩٩٠)؟.

ليبق التساؤل: كيف يمكن أن نمتلك سياسة رياضية واضحة قادرة على مواجهة الاختلالات العميقة والممتدة التي ترتبط بالرياضة، فالاستثمار في الرياضة وتوسيع البنية التحتية، والارتقاء بمنظومة التسويق والعمل بجدية نحو تطوير التجربة الاحترافية التي بدأت منذ عام ١٩٩٠، وتقوية الأطر المؤسسية وتحديث اللوائح المنظمة، جميعها خطوات يُمكن أن تمثل محطة على طريق طويل يحتاج إلى الإرادة والرؤية والجهد، للتعامل مع كرة القدم كصناعة واستثمار وأداة من أدوات القوة الناعمة للدولة المصرية، ومدخل للترويج السياحي، وبالتالي فإن استثمار المشاركة في المونديال، يجب ألا يرتبط فقط بحلم الوصول، وحالة محمد صلاح، بل بصناعة منظومة متكاملة للرياضة تستوعب الشباب، وتدجمعهم ضمن باقي أدوات المجتمع والدولة في المجال العام، وتنظم تفاعلاتهم بعيداً عن أفكار وتعصب روابط الأولتراس، وتعمق هويتهم وانتهاهم وتخرجهم من مأزق الاعتراب. وليصبح الارتباط بحالة محمد صلاح كنموذج وقدوة نتاجاً لتلك المنظومة والبيئة الداعمة للمواهب وبناء القدرات، وليس نتاجاً لظروف استثنائية وحالات فردية.

واتساقاً مع تلك المتطلبات، يجب تقييم تجربة المشاركة في المونديال من منظور استخلاص الدروس، وأن تمثل نتائج التقييم إطار عمل حاكماً للتخطيط المستقبلي لسياستنا الرياضية ومنظومة تكاملها مع باقي السياسات العامة.

د. أيمن السيد عبد الوهاب